

مقهى الليل

إسلام أحمد

لظلام الليل درجات، فهناك ليلٌ يكون ظلامه خفيفًا، يتخلله ضوءًا شحيح، وهناك ليلٌ يكون مظلمٍ ولكِنَّكَ تَسْتَطِيعُ مِنْ خِلالِ ضَوْءِ الْقَمَرِ تَمْيِيزَ الْأَشْيَاءِ بوضوح، وهناك ليلٌ يكون ظلامه داكنٌ ومُوحِشٌ كقبرٍ في جوف كهفٍ بعيد.

كان ظلام هذا اليوم من النوع الثالث، ظلامٌ كئيب، يُشِيعُ فِي الْقَلْبِ الْوَهْنَ، وَكَأَيِّ شَابٍ فِي الْعَقْدِ الثَّانِي مِنْ عُمُرِهِ أُحِبُّ مَجْلِسَ الْمَقْهَى مَعَ أَصْدِقَاءِ الْحَيِّ، فَكُلَّ يَوْمٍ تَقْرِبُ، وَبَعْدَمَا يَنْتَهِي يَوْمِي الْعَمَلِي، نَتَقَابِلُ وَنَذْهَبُ سَوِيًّا إِلَى مَقْهَى "الليل"، وَنَجْلِسُ نَحْتَسِي الشاي والقهوة وَنُدْخِنُ لِفَائِظَ التَّبِغِ الْمَحْشُوءَةَ بِالْمُخْدِرِ، وَنَنْسَى أَنْفُسَنَا إِلَى سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ.

وَصَلَّتِ السَّاعَةُ إِلَى الثَّانِيَةِ وَالنِّصْفِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، الْمَقْهَى شَبِهَ خَالٍ إِلَّا مِنَّا، انْتَهَى السَّمَرُ وَاللَّهُوُ وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ، مَشَيْتُ وَحَدِي مُتَجَهًّا إِلَى مَتَزَلِي الَّذِي يَقَعُ بَعْدَ عِدَّةِ شَوَارِعٍ مِنْ شَارِعِ الْمَقْهَى، ثُمَّ قَرَّرْتُ أَنْ أَسْلُكَ طَرِيقًا مُخْتَصِرًا، وَهُوَ طَرِيقُ "السِّكَّةِ الْحَدِيدِ" دَخَلْتُهُ فَكَانَ مُظْلَمًا إِلَى حَدِّ عَدَمِ لِرُؤْيَا، وَهَادِيءٌ إِلَى حَدِّ سَمَاعِ صَوْتِ أَنْفَاسِي؛ قَرَّرْتُ أَنْ أَدْنِدُنْ أَيَّ أَغْنِيَةٍ؛ وَلَمْ أَكُذِّبْ أَنْ أَفْتَحُ فَعَيَّ لِأُغْنِيَّ فَإِذَا بِي أَسْمَعُ صَوْتَ صَرِيخَةٍ مَدْوِيَّةٍ، تَبْدُو لِفَتَاةٍ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهَا، النَّفْتُ حَوْلَ نَفْسِي بِذَعْرِ حَقِيقِي، وَقَدْ زَالَ عَنِ رَأْسِي تَأْثِيرُ الْمُخْدِرِ بَعْتَةً، وَدَقَّاتُ قَلْبِي تَعْلُو وَتَهْبِطُ بِلَا

هوادة، لم أسمع صوت أي صُراخ آخر، هدأت من روعي، وأخذت أزدد الاستعاذة من الشيطان، واستكملت المشي إلى بيتي، خطوتين فقط وبدأ صوت البكاء، كان صوت بكاء نسائي، يبدو أنه لنفس فتاة الصرخة، بكاءً تحوّل إلى نحيبٍ متقطع، قدماي غُرسا في الأرض الأسفلتية من الخوف، أصغي بكل ما في أذني وعقلي من طاقة لأحدد مكان هذه الفتاة بالتحديد ولا أستطيع، بدأت التحدّث فخرج صوتي مُتلعثًا خائفًا من هذا الظلام الموحش :

- مين؟؟ مين إل ل ي بيعيط كدا؟!

فلم يُجيب أحد، بل استمرّ صوت النحيب.

ثمّ دوت صرخة ثانية، أخرجت هاتفي من النوع " Nokia " ، واشعلت ضوء الكشاف، وجّهته حولي ويدي تهتز به كالمجنون، فيصدر عنه أثر الاهتزاز ضوءًا أبيضًا راقص في كبد الظلام، ثمّ رأيتهم جميعًا.

كانوا واقفين أمام سيارة حمراء من النوع " فيات ٢٨ " ، أربعة رجال، وفتاة تبدو في العشرين من عمرها، الأربعة ملتفين حولها، يهشون جسدها نهشًا، يلوثونه بأفواههم، يُدبسون مناطق جسدها الحساسة بأيديهم، إنّها حالة اغتصاب علنية، والفتاة تنتحب وترجّاهم أن يتركوها ترحل، وهم كالكلاب، يلعبون عظمتهم بلا رحمة، أفرغ الأربعة شهواتهم عليها، وأنا واقفٌ لا أستطيع التّحرك من هول المشهد، أغلقت كشاف هاتفي ومشيت بخذرٍ نحوهم، أخرجت " مفك " من شنطة عدتي وذهبت تجاههم مُقرّرا قتلهم واحدٌ وراء الآخر، مشيت بهدوء الموتى، والغريب أنّ أثناء اتجاهاي نحوهم اختفى صوت النحيب والهمهمات والشّهق، وحلّ

محلهم صَوْتُ السكونِ مِنْ جَدِيدٍ، آثَارُ ذَلِكَ رَبِّبَتِي، فَأَخْرَجْتَ هَاتِفِي مَرَّةً أُخْرَى
وَفَتَحْتَ ضَوْءَ الكَشَّافِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ شَيْءٍ غَيْرِي فِي الشَّارِعِ كُلِّهِ!

لَمْ اشْعُرْ بِنَفْسِي إِلَّا وَأَنَا أُجْرِي كَالْمَجْنُونِ، بِلَا هَوَادَةٍ، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَنزِلِي
دَفَنْتُ جَسَدِي تَحْتَ أَحَدِ الأَعْطِيَةِ، غَرَقْتُ فِي خَوْفٍ كَبِيرٍ، وَعَقْلِي عَاجِزٌ عَنِ تَفْسِيرِ مَا
رَأَيْتَهُ اليَوْمَ، وَمِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ، نِمْتُ!

جَاءَتْني فِي كابوسٍ لَعِينٍ، نَفْسُ الفَتَاةِ، وَنَفْسُ الأَرْبَعِ شُبَّانِ، وَلَكِنْ هَذِهِ المَرَّةَ
كَانُوا يَغْتَصِبُونَهَا فِي غُرْفَتِي، وَعَلَى فِرَاشِي، وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَتَنَحَّبُ كَدِجَاجَةٍ تُدْبِحُ، ثُمَّ
اسْتَيْقَظْتُ أَثْرَ صَوْتِ أُمِّي وَهِيَ تُؤَبِّخُنِي؛ كَيْ أَذْهَبَ لِلْعَمَلِ.

فِي اليَوْمِ التَّالِيِ وَعَلَى مَقْهَى " اللَّيْلِ "، جَلَسْتُ أَنَا وَرِيفَاتِي، مِثْلَ العَادَةِ، وَأثناءَ
السَّمْرِ حَكَيْتُ لَهُمْ مَا حَدَّثَ مَعِيَ لَيْلَةَ أَمْسٍ، هُنَاكَ مَن اسْتَهْزَأَ بِكَلَامِي وَهُنَاكَ مَن
ظَهَرَ عَلَيَّ وَجْهَهُ الجَدِّ لِلحِظَاتِ بَسِيطَةٍ، مُدَّعِينَ أَنَّ ذَلِكَ مِثْلُ الأَثْرِ المُخْدِرِ، قُلْتُ لَهُمْ أَنَّ
مَا رَأَيْتَهُ حَقِيقَةٌ مائَةٌ بِالمائَةِ، فَلَمْ يُصَدِّقُونِي، إِلَّا أَن سَمِعْنَا صَاحِبَ المَقْهَى، وَهُوَ
رَجُلٌ فِي العَقْدِ الخَامِسِ مِنْ عَمْرِهِ، لَهُ هَيْبَةٌ فِي حَيِينَا كُلِّهِ، قَطَعَ كَلَامَنَا وَقَالَ:

- صدقوه يبني أنت وهو، دي " بُئِينة "، بِنِيَّةٍ كَانَتْ شِغَالَةً فِ صَيْدِلِيَّةٍ قَرِيبٍ
مِنْ هُنَا، كَانَتْ سَاكِنَةً فِ آخِرِ شَارِعِ السُّكَّةِ، وَبَعْدَ مَا خَلَصَتْ وَرَدِيَّتَهَا
بِاللَّيْلِ وَمَرُوحَةٍ، وَقَفَهَا أَرْبَعِ شَبَابٍ بَعْرِيَّتِهِمْ، كَانُوا سَكْرَانِيَيْنِ، اغْتَصَبُوهَا
وَبَعْدَ كَذَا دَبَّجُوهَا، وَحَطُوهَا فِ شِوَالٍ وَرَمُوهَا فِ مَقْلَبِ الزِّيَالَةِ الَّتِي جَنْبَ
سُكَّةِ القَطْرِ، الأَرْبَعَةَ دُولٍ فِ نَهَارِيَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ لِقَوْمِهِمْ كَلِّمَهُمْ مُتَعَلِّقِينَ عَلَيَّ
سَلَكَ الكَهْرِبَا بَتَاعِ المِحْطَةِ، مَشْنُوقِينَ، وَلامُواخِذَةَ أَعْضَاءِهِمُ الذِّكْرِيَّةِ



مش موجودة. صدقوه بيبي أنت وهو: لأن " بُئينة " بتظهر كثير لناس
معينة في الشارع دا.

ثُمَّ نَظَرُ إِلَيَّ وَقَالَ بِلَهْجَةٍ حَزِينَةٍ :

- بس بيبي إلي أعرفه أن لما حد يبشوفها، بتقعد روحها ملازمه فترة، لحد
ما بتمشي لوحدها، أوعى تفكر تضايقها يا كامل .

بَعْدَمَا سَمِعْتَ كَلَامَ صَاحِبِ مَقْهَى " اللَّيْلِ " أَصْبَحْتَ أَشْعُرُ بِالْخَوْفِ أَكْثَرَ مِنْ
أَيِّ وَقْتٍ مَضَى، وَبِالْفِعْلِ ظَلَّتْ " بُئِينَةُ " تُلَازِمُنِي أَحْلَامِي فَتَرَةً طَوِيلَةً مِنَ الْوَقْتِ،
وَرَأَيْتَهَا مَرَّةً وَحِيدَةً وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى الْمَقْهَى مَعَ رِفَاقِي. مَرَّتْ بِمَلَابِسِهَا الْمُقْطَعَةَ أَمَامَ
بَابِ الْمَقْهَى، وَعِنْدَمَا خَرَجْتَ وَرَاءَهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا أَثَرٌ فِي الشَّارِعِ كُلِّهِ، بَعْدَهَا رَحَلَتْ عَنِّي
بِلَا أَيِّ مُقَدِّمَاتٍ.

وَالْيَوْمَ وَبَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ رَأَيْتَهَا مُجَدِّدًا،

بَعْدَمَا تَرَكْتَ الْحَيَّ كُلَّهُ. وَتَزَوَّجْتَ بَعِيدًا، جِئْتَ لِأَزُورَ وَالِدَتِي، وَفِي اللَّيْلِ نَزَلْتُ
لِاشْتِرَائِ بَعْضِ الْأَدْوِيَةِ لَهَا مِنْ صَيْدَلِيَّةٍ فِي شَارِعِ السِّكَّةِ، وَأَنَا عَائِدٌ كَانَ الشَّارِعُ مُظْلَمًا
تَمَامًا، رَنَّ هَاتْفِي، فَأَخْرَجْتَهُ، وَعَلَى ضَوْءِ الْهَاتْفِ رَأَيْتَهَا،

كَانَتْ جَالِسَةً فِي مُنْتَصَفِ الشَّارِعِ عَلَى سَيَّارَةٍ حَمْرَاءَ مِنْ نَوْعِ " الْفِيَّاتِ ٢٨ "
كَانَتْ مَلَابِسُهَا مُقْطَعَةً، وَتَنَزَفُ دَمًا مِنْ فَتْحَتِي أَنْفِهَا، تَنْظُرُ إِلَى عَيْنَايَ مُبَاشِرَةً،
وَتَبْتَسِمُ، ظَلَّتْ مُبْتَسِمَةً لِي ابْتِسَامَةً مُخِيفَةً، لَوَّحَتْ لِي بِيَدَيْهَا ثُمَّ نَزَلَتْ مِنْ عَلَى
السَّيَّارَةِ، وَمَشَتْ بِخَطَوَاتِهَا الْمُتَعَرِّجَةِ بِاتِّجَاهِ سِكَّةِ الْقِطَارِ، ثُمَّ تَلَاشَتْ فِي الظَّلَامِ.